الخيال في الشعر العربي

يرتفع شأن الشعر وتقضي لصاحبه بالبراعة والتفوق على غيره بمقدار مايحرز من بناء محكم ومعنى بديع . وقد حدق فلاسفة الادب انظارهم الى الوجوه التي تملك بها المعاني شرف منزلتها وحسن طلعتها ، أو تأخذ منها الالفاظ متانة نسجها وصفاء ديباجتها .

ومن أجل الفنون التي يرجع النظر فيها الى جهة المعنى صناعة التخييل ، وهي الغرض الذي جردت القلم للبحث عنه في هذه الصحائف متحريا أسلوبا لا يشتكي منه القارئ طولا ولا قصرا

ولا ادعي أن هذا الفن مما ضل عن أولئك الفلاسفة فلم يعرجوا على مكانه ، أو صعب عليهم مراسه فلم يسوسوه بفكر ثاقب وبيان فاصل ؛ فان كثيرا من علماء البلاغة قد ولوا وجوههم شطره حتى توغلوا في طرائقه ، وكشفوا النقاب عن حقائقه ومن أبعدهم نفوذا في مسالكه الغامضة واسلمهم ذوقا في نقد معانيه وتمييز جيدها من رديئها الامام عبد القاهر الجرجاني صاحب كتابي أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز .

وما كان لي سوى أن أعود الى مباحثه المبثوثة في فنون شتى فاستخلص بقدر ما تسمح به الحال لبابها ، وأولف بين ماتقطع من أسبابها ، ولا تجدني أن شاء الله أحكي مقالهم دون أن أعتد بناصيته أو أبث خلاله أو أضع في ردفه جملا تلبسه ثوبا قشيبا أو تنفخ فيه روحا كانت هادئة

الشعر

يعرف العربي في جاهليته كما عرف بعد أن نزل اليه العلم من كل حدب أن الكلام ينقسم الى شعر ونثر . والميزة المحسوسة لكل أحد أن الشاعر لايحشو عليك الالفاظ جزافا مثلما يفعل الناثر ، وانما يلقيها اليك في أوزان تزيد في رونقها ، وتوفر اذنك عند سماعها ، ومن هذا ذهب بعضهم في حد الشعر الى أنه كلام مقفى موزون . وهذا مثل من يشرح لك الانسان بأنه حيوان بادي البشرة منتصب القامة . فكل

بما قصر تعريفه على مايدرك بالحاسة الظاهرة ، ولم يتجاوزه الى المعنى الذي تقوم الحقيقة ويكون مبدأ لكمالها ، وهو التخييل في الشعر والنطق في الانسان

فالروح التي يسميها الكلام المنظوم في قبيل الشعر انما هي التشابيه والاستعارات والامثال وغيرها من التصرفات التي يدخل لها الشاعر من باب التخييل . وليس يزين سوى خاصة من خواص اللفظ المنظور اليها في مفهوم الشعر بحيث لا يسميه ارباب شعرا الا عند تحققه ، واطلاق الشعر على الكلام الموزون اذا خلا من معنى تستطرفه النفس لا يصح الا كما يصح لك أن تسمي جثة الميت انسانا ، أو تمثال الحيوان المفترس أسدا

والمنثور من الكلام يشارك الشعر في اشتماله على الصور الخيالية ولكن نصيب الشعر منها أوفره وهو بها أعرف ، كما يمتاز بأحد أنواع التخييل وهو مالا يتوخى به صاحبه وجه الحقيقة ، وانما يقصد به اختلاب العقول ومخادعة النفوس الى التشبث بغير حق يدعوك كما قال ابن الرومي الى أن تطوي جناحيك على جذوة من الحقد

وما الحقد الا توأم الشكر في الفتى ... وبعض المزايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذي إساءة ... فثم ترى شكرا على واسعي القرض

وقال آخر — يزين لك أن تدرج نفسك في كفن الذل وتواريها في حفرة من الخمول

لذ بالخمول وعذ بالذل معتصما ... بالله تنجو كما أهل النهى سلموا
فالربح تحطم ان هبت عواصفها ... دوح الثمار وينجو الشيح والرتم

ولاختصاص الشعر بهذا النوع من التخييل أطلق بعض المشركين من العرب على الرسول صلى الله عليه وسلم اسم الشاعر ليلقوا في أوهام السذج أن كلامه من نوع مايصدر عن الشعراء من الاقوال الموهمة والتخيلات الباطلة

فهم يعلمون أن القرآن بريء من النزعة التي عهد بها الشاعر وهي عرض الباطل في لباس الحق ، لانه انما ينطق بالحكمة ، ويجادل بالحجة ، ولا يخفى عليهم أنه مخالف للشعر في طريقة نظمه ، فان للشعر عروضا يقف عنده ووزنا ينتهي اليه ، والقرآن يصوغ الموعظة وينفق الحكمة بغير ميزان ، ولكن ضاقت عليهم مسالك الجدال وانسدت في

وجوههم طرق المعارضة ، فلم يبالوا أن يتشبثوا بالدعاوي التي يظهر بطلانها الاول رأي، كما قالوا عنه انه مجنون ، وهم يشهدون في انفسهم انه ابلغهم قولا واقواهم حجة وأنطقهم بالحكمة

وأما الآيات التي وافقت بعض الاوزان فهي على سلامتها من بهرج التخيلات لانجد الموافق منها الموزون قد استقل بنفسه وأفاد المعنى دون أن تصله بكلمات من الآيات السابقة أو اللاحقة ، والكلام المؤلف من الموزون وغير الموزون لايصح لاحد أن يسميه شعرا ليقدح به في قوله تعالى (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون)

التخييل عند علماء البلاغة

ينقسم التصرف في المعاني على ما يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني الى تحقيق وتخييل ، والفارق بينهما أن المعنى التحقيقي ما يشهد له العقل بالاستقامة وتتضافر العقلاء من كل أمة على تقريره والعمل بموجبه كقول المتنبي

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

فمعنى هذا البيت مما تلقاه العقلاء بالقبول ، ووضعوه بمقدمة ما يتنافسون فيه من الحكم البالغة، وكذلك اتخذه الامراء الراشدون قاعدة يشدون بها ظهر سياستهم، ويستندون اليها في حماية شعوبهم ، ومن الذي يجهل أن حياة الامم انما تنتظم بالوقوف في وجه من يتهافت به السفه على هدم شرفها والاستئثار بحقوقها ؟

والتخييلي هو الذي يرده العقل ، ويقضي بعدم انطباقه على الواقع ، اما على البديهة كقول بعضهم

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فكل احد يدرك لاول ما يطرق سمعه هذا البيت أن الكواكب لا تنوي ولا تنتطق ولا تخدم ، وأن تلك النجوم المتناسقة في وسط الجوزاء مركبة فيها من قبل أن يصير الممدوح شيئا مذكورا

أو بعد فناء قليل كقول أبي تمام

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

أعني الحاطبة في صدر البيت عن انكارها لفاقة الكريم وفراغ يده من المال واخبر في المجز بأن السيل لا يستقر على الاماكن المرتفعة . وهذا المعنى في نفسه صحيح ولكن الفاء في قوله « فالسيل حرب » أفصحت بأن السبب في عدم توفر هطام الدنيا لذي الكرم هو كون الماء اذا وقع على الاماكن العالية لا يلبث أن ينحدر الى ما انخفض عنها من وهاد وأغوار ، وهذا انما وصل الى الذهن بتخييل أن رفعة القدر بمنزلة المكان العالي وان المال بمنزلة الماء الدافق ينساق الى الرجل فيقضي منه وطره ثم يرسله ان شاء الى بني الحاجات ، فيكون القول بأن مكانة الكريم لارتفاعها جعلت المال يمر على يده ثم ينطلق بالبذل والانفاق يستند الى ان الماء لا يتجمع على ما صعد على وجه الارض من أكمات وهضاب ، وهذا القياس ضرب من التخييل لا يجول في العقل الا ريثما ينظر الى ان السبب في عدم استقرار الماء على الاماكن العالية كونه جرما سيالا لانتماسك اجزائه وثبت في محل الا اذا أحاط بجوانبه جسم كثيف ، وليس للدراهم والدنانير هذه الطبيعة حتى يلزم أن تمر على يد الكريم ثم تنصب منها الى من كانوا أدنى منه منزلة

ويفهم من وجه التفرقة بين القسمين أن مجرد الاستعارة عندهم لا يدخل في قسم التخييل وقد صرح الجرجاني بهذا في كتاب اسرار البلاغة ناظراً الى ان المستعير لا يقصد الا اثبات معنى اللفظة المستعارة حتى يكون الكلام مما ينبو عنه العقل ، وانما يعمد الى اثبات شبه بين امرين في صفة ، والتشابه من المعاني التي لا ينازع العقل في صحتها

التخييل عند الفلاسفة

يقول الفلاسفة ان من بين القوى النفسية قوة تتصرف في صور المعلومات بالتركيب تارة والتفصيل مرة أخرى ، ويسميها فلاسفة العرب اذا لم تخرج عن دائرة التعقل مفكرة ، ويقال في عملها تفكر ، فان تصرفت بوجه لا يطابق النظر الصحيح سموها مخيلة ، ويقال في عملها تخيل أو تخييل . فمثال ما يأخذ من العقل مأخذ القبول قول القاضي عياض

انظر الى الزرع وخاماته تبكي وقد وات امام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

فالشاعر التفت الى ما في حافظته من الصور المناسبة لهيأة زرع أخضر يتخلله

شقائق النعمان وقد أخذت الرياح تهب عليه من جانب فيميل الى آخر ميلا يتراءى للعين انه حركة ينتقل بها من مكانه ، فوقع خياله على الجيش والملابس الخضراء والجراحات التي تنال الجيش المقاتل فألف بينها ثم جعل صوره ادبارا وانهزاما ليوافق حالة جيش ظهرت فيه الجرحى بمقدار ما في المزارع الخضراء من شقائق النعمان

ومثال مالا يثق به النظر ولا يدخل في حساب الاقوال القائمة على التحقيق قول الشاعر

ترى الثياب من الكتان يلمحها نور من البدر أحيانا فيلبسها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها والبدر في كل وقت طالع فيها

ابصر معاجر من يتحدث عنها وقد اخلقت فحاول ان يلتمس وجها يجعل ذلك الاخلاق من شواهد حسنها، أو يسد فم العاذل حتى لا يغض من شأنها، فتصور طلعة القمر وانساق اليه ما يدور بين الناس من أن الثياب التي يمج عليها القمر أشعته يسرع اليها البلى ثم ادعى مبالغا في التشبيه أن وجهها قمر وبنى على هذا أن تعجب ممن ينكر تأثيره في معجرها بالاخلاق. ففي هذا التصرف ادعاء أن وجهها قمر وهذا مما يألفه العقل لانه بمنزلة التشبيه ولا مفر له من قبوله متى تحقق الوجه الجامع بين طرفيه والمعنى الذي للعقل أن يلتفت عنه انما هو دعوى ان معجرها أخلق بعلة كونه مطلعا لوجهها المسمى بالقمر على وجه المجاز

ماذا نريد من التخييل ؟

يفهم من صريح المقالة الفلسفية أن المفكرة والمخيلة اسمان لقوة واحدة وهي التي تتصرف في المعلومات بالتفصيل والتركيب وانما تغير اسمها بحسب اختلاف الحال فعند ما يكون زمامها بيد العقل يسمونها مفكرة وعندما تنفلت منه يسمونها مخيلة

واذا عرفت أن التمثيل والاستعارة من عمل هذه القوة باتفاق علماء النفس فلو جرى طائفة من الناس على اطلاق التخيل أو الخيال عند ما تتصرف هذه القوة تصرفا تصوغ به معنى مبتدعا سواء أنس به العقل أو نجافى عنه لم يكونوا صنعوا شيئا سوى تغيير الاصطلاح وادخال القسمين تحت اسم واحد

واطلاق لفظ التخيل أو الخيال في صدد الحديث على المعاني الصادقة والتصورات المعقولة لايحط من قيمتها أو يمس حرمتها بنقيصة فان علماء البلاغة أنفسهم قد اطلقوه على مايأتي به البليغ في الاستعارة المكنية من الامور الخاصة بالمشبه به ويثبته للمشبه فقالوا الأظفار أو إضافتها في قولك « انشبت المنية اظفارها » تخييل أو استعارة تخييلية واطلقوه في الفصل والوصل حين تكلموا على الجامع بين الجملتين وقسموه الى عقلي ووهمي وخيالي واطلقوه في فن البديع على تصوير ماسيظهر في البيان بصورة المشاهد ولم يبالوا في جميع ذلك ان يظهروا لها امثلة من الكتاب العزيز وغيره من الاقوال الصادقة فيسوغ لنا حينئذ ان نساير إحياء العصر ونتوسع في معنى الخيال والتخييل ولا نقف عند اصطلاح القدماء من الفلاسفة أو علماء البلاغة حيث خصوا بها مالا يصادق عليه العقل والمخالفة في الاصطلاح مادامت الحقائق قائمة والمقاصد ثابتة بحالها لا يبعد عن تبديل العبارة وتطيير الاسلوب . هـ

يقول الناس عند مايسمعون بيتا أو أبياتا لاحد الشعراء : هذا خيال واسع أو هذا تخيل بديع . فيفهم السامع لهذه الكلمات ومايماثلها ان لصاحب هذا الشعر قدرة على سبك المعاني وصوغها في شكل بديع ، ولو قالوا « ما أضيق هذا الخيال أو ما اسخف هذا التخيل » فهم السامع ان لصاحبه قدرة على انتاج المعاني في صورة منكرة

يصح لنا الآن ياخذ هذا المعنى الذي يحضر في الذهن عند سماع تلك الجمل ونشرح به معنى المتخيلة فنقول هي قوة تتصرف في المعاني انتزع منها صورا بديعة وهذه القوة انما تصوغ الصور من عناصر كانت النفس قد تلقتها من طريق الحس أو الوجدان، وليس في امكانها ان تبدع شيئا من عناصر لم يتقدم للمتخيل معرفتها. ومثال هذا من الصور المحسوسة أن قدماء اليونان رمزوا الى صناعة الشعر بصورة فرس له جناحان وهي صورة انما انتزعها الخيال بعد ان تصور كلا من الفرس والطير بانفراده

وقد يجول في خاطرك عند ماتمر على قول امرئ القيس

ايقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب اغوال

ان هذا الشاعر قد تخيل لاغوال وانيابها ولم نسبق له معرفة بها اذ لا اثر للغول وانيابها ولا لشيء من موادها في العيان فيلوح لك ان هذا يقدح في قولنا ان المخيلة

لاتؤلف الصور الا من مواد عرفتها بوسيلة الحس أو الوجدان

والذي يكشف الشبهة ان كلا من الغول وانيابها صورة وهمية ولكن لم يجدها الخيال من نفسه بل اخذ من الحيوانات الفظيعة المنظر اعضاء متفرقة وأنيابا حادة وتصرف فيها بالتكبير ثم ركبها في صورة رائعة وهي التي تخطر على الذهن عند مايذكر اسم الغول . حتى ان الناس لا يتفقون فيما أحسب على تصور هذا الامر الموهوم فكل يخطر له المعنى في أبشع صورة يتمكن خياله من جمعها وتلفيقها

فغاية ماصنع الشاعر أن تخيل امرا محسوسا وهي النصال المحددة في صورة أمره وفي نفسه خيالي أيضا ولكن صورته مأخوذة من مواد كان يعرفها من قبل بطريق الرؤية أو السماع

وتعتمد المخيلة على قوة التذكر وهو تداعي المعاني وخطورها على الذهن بسهولة وبعد ان تتراءى لها الصور بوسيلة التذكر تستخلص منها مايلائم الغرض فتفصل الخاطرات عن أزمنتها أو امكنتها أو مايتصل بها مما لايتعلق به القصد من التخييل ، ثم تتصرف في تلك العناصر بمثل التكبير أو التصغير وتأليف بعضها الى بعض حتى تظهر في شكل جديد

تداعي المعاني

ترجع الاسباب التي تجمع بين المعاني وتجعلها بحيث يكون حضور بعضها في النفس يستدعي حضور بعض الى ثلاثة أنواع

(اولها) اقتران المعنيين في الذهن حيث يكون تعلقهما أو احساسهما في وقت واحد أو على التعاقب ، ومن هذا تذكر الوقائع عندما يخطر بالبال مكانها كما قال ابن الرومي

وحبب أوطان الرجال اليهم ماآرب قضاها الشباب هنالك
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلك

أو زمانها كما قالت الخنساء

يذكرني طلوع الشمس صخرا واذكره بكل مغيب شمس

وخصت هذين الوقتين بالتذكير لانهما مظهر لعملين عظيمين من أعمال صخر اذ كان يغدو للاغارة التي هي مظهر الشجاعة عند مطلع الشمس ويبتاع طعام اكراما للضيوف وقت الغروب

ومن هذا الوجه نشأ الكنايات وبعض أنواع المجاز المرسل أما الكنايات فلأنها الدلالة على المعنى باسم ما يلازمه في الخارج . وصح هذا نظراً الى ان حضور المعنى الموضوع له اللفظ يستدعي حضور لازمه في ذهن المخاطب كقول الحصين ابن الحمام

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
ولسنا على الاعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

أراد الشاعر أن يفيد ثباتهم في مواقف الحروب وأنه لا يلتفت بهم الفزع من الموت الى سبة المزعة فعبر عن هذا المعنى بأن دماءهم لا تقع على أعقابهم البتة ، وهذا يقتضي انهم لا يولون العدو ظهورهم حتى ينالها بسيوفه كما ان معنى قطر الدماء على الاقدام يذهب بالسامع الى معنى انهم يستقبلون العدو بوجوههم الى ان ينالوا ظفرا أو يلاقوا موتا شريفا

وأما بعض أنواع المجاز المرسل فكاطلاق اسم الحال على المحل والسبب على المسبب والكل على الجزء وعكسها ، ومداره على ان ذهن المخاطب ينتقل الى المعنى المراد بسهولة حيث كان بينه وبين المعنى الحقيقي مناسبة تقتضي تقارنهما في الذهن لان ادراكهما كان في وقت واحد كالحال والمحل والكل والجزء أو على التعاقب كالسبب والمسبب

(النوع الثاني) من الاسباب التي تتلاحق بها المعاني في الذاكرة التباين فان الصور التي يكون بينها تضاد لا يكاد بعضها يتخلف عن بعض ، فمن تصور الشجاعة خطر له معنى الجبن ، ومن مرت على باله الصداقة انساق اليه معنى العداوة ، ولهذا أدخل علماء البلاغة في وجوه الوصل بين الجملتين ما يقوم بينهما من التضاد في المعنى وساقوا في أمثلته قوله تعالى (ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم) وان شئت مثلا من الشعر فقول المتنبي

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وانثني وبياض الصبح يغري بي

ومن هذا الوجه أيضا صح لهم ان يعدوا في علاقات المجاز المرسل الضدية

(النوع الثالث) التشابه وهو ان يكون بين المعنيين تماثل في بعض أمور خاصة كمن يرى الرجل المقدام فيتصور الاسد ويسمع الالفاظ البليغة قد تبرجت في أسلوب محكم فيذكر الدرر المتناسقة في اسلاكها . وعلى هذا النوع يقوم فن التشبيه والاستعارة اللذين هما أوسع مضمار تتسابق فيه قرائح الشعراء والكتاب

لماذا تختلف الافكار في تداعي المعاني ؟

تختلف الناس فيما يتداعى اليهم من المعاني الى ان ترى صورا تتوارد على شخص متعاقبة وهي في خيال آخر لاتتقارن البتة ، قال أحد الفلاسفة اني لا أسأل عن السبب في ان معنى من المعاني يدعو آخر ويأخذ بناصيته ولكنني أبحث في شيء آخر وهو ان المعنى الواحد قد يختلف توالبه باختلاف الاشخاص ، ثم قال ويمكن الجواب عن هذا بأن الناس يختلفون في ميولهم وشعب وجهتهم في الحياة ، فكل معنى يدعو لصاحبه ماهو ألصق بميله وأقرب الى نفسه

وايضاح هذا الجواب ان توالي المعاني يختلف باختلاف الاشخاص لاحد سببين (الاول) ان الدواعي والعواطف النفسية لها مدخل في تجاذب المعاني واسترسالها على الخيال ، فالطمع أو الحاجة أو الرهبة مثلا تستدعي المعاني العائدة الى المديح أو الاستعطاف ، والغرام يستدعي المعاني الغزلية ، والكآبة والاسف يستدعيان معاني الرثاء أو الشكوى ، والسرور يستدعي المعاني اللائقة بالهناء ، والاعجاب بالنفس أو العشيرة يستدعي معاني الفخر والحماسة ، فالزاهد في الدنيا لا يسح خياله من معاني الاطراء والملق ما يسمه خيال الحريص عليها ، والخالي من عاطفة الغرام لا يخطر على قلبه من معاني التشبيب ما يخطر على قلب الشجي المستهام

(الثاني) مايتفق للانسان في طرز حياته وهو حال المحيط الذي يتقلب فيه فيتوالى على خاطر الناشيء في النعيم والترف ما لا يتوالى على خاطر الناشيء في حال عسرة وبؤس . ويحضر في نفس من شب في الحاضرة مالا يحضر في نفس الناشيء في البادية ، وينساق الى خيال الناشيء في شمال المعمورة مالا يدخل في خيال الناشيء في جنوبها ، فالمقيم في شمال أوربا مثلا يذكر الشتاء فتقارنه صورة الثلج وليس بينهما في ذهن المقيم بالجنوب اقتران واتصال لقلة مشاهدته للثلج أو عدم وقوع نظره عليه طول حياته . ولو نظر الى الهلال رجلان هذا نشأ في الحلية والاخر اتخذ الحصاد حرفة فالشأن أن يتداعى الى الاول صورة السوار وينتقل منه الى المعصم أو الصياغة ويتداعى الى الثاني صورة المنجل وينتقل منها الى الزرع أو الحصادة (يتبع) محمد الخضر التونسي